النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي
النصرانية بين عرب شمالي سورية (تابع)

ونختم هذا الفصل بأثر جميل وُجد في بعض مخطوطات لندن السريانيَّة التي وصفها العلَّامة رَيْت في قائمة المتحف البريطاني تحت العدد ٧٠٤ وهو مجموع رسائل قديمة راقية الى اواخر القرن السادس المسيح من جملتها رسالة مضمونها دستور الايمان كتبها روسا ، اديرة اقليم البلاد العربيَّة (ܒܝܬ ܪܘܫܐ ܕܒܝܬ ܩܛܪ̈ܐ) ووجَّهوها الى يعقوب البرادعيّ ليرذلوا فيها بدعة يحيى النحويّ في تثليث الجوهر الالهيّ (Trithéistes) وذلك بين السنتين ٥٧٠ و٥٧٨ وهذه الرسالة قد نشرها المسيو لامي (M^gr Lamy) رئيس كليَّة لوفان في مؤتمر المستشرقين في باريس سنة ١٨٩٨ (ص ١١٨—١٣٨) وهي موقعة بامضاء ١٣٧ رئيساً على ١٣٧ ديرًا موقعها كلُّها في اقليم العربية الممتدّ شرقي بلاد الشام الى جهات الفرات (١ . فناهيك بهذا العدد العديد شاهدًا جليلًا على انتشار النصرانيَّة بين عرب الشام وسوريَّة . على انَّ هؤلاء العرب كانوا جنحوا الى البدعة اليعقوبيَّة كما ترى . وأيد ذلك ابن العبريّ في تاريخه الكنسيّ حيث قال (ج ١ ص ٢١٧) : « انَّ كلّ قبائل العرب التي كانت في البادية (يريد بادية الشام والفرات) كانوا معارضين للمجمع الخلقيدوني ولا يرضون بمشاركة الخلقيدونيين » . فهذا القول مع ما فيه من المبالغة لا يخلو من الصحَّة . وعلى كلّ حال يثبت قولنا في شمول النصرانيَّة لعرب بلاد الشام والفرات الى حدود العراق

---

١) اطلب مقالة العلَّامة نولدك في بحثه الجغرافي عن مواقع هذه الاديرة في المجلة الاسيويَّة الالمانية (ZDMG, XXIX, 419-444)

والمستشرقون في عهدنا يرتأون هذا الرأي. قال الهولندي دوزي (B. Dozy) في مقدّمات كتابه عن الاسلام. الترجمة الفرنسويّة لشوفان (V. Chauvin, p. 13) « كان عرب سوريّة يدينون بالنصرانيّة » (Les Arabes de Syrie professaient le Christianisme) ويشاركهُ في هذا الرأي غيرهُ من العلماء كنولدك وغولدتسيهر (J. Goldziher) ولونرمان (Lenormand) بل كل من لهُ بعض المام بتاريخ العرب في الجاهليّة

الفصل العاشر
النصرانية في الحجاز ونجد

تتبّعنا كما رأيت آثار النصرانيّة في اطراف بلاد العرب على كل جوانبها فلم يبق علينا الّا ذكر اواسطها لنرى ما كان للدين المسيحي من التأثير في القبائل الساكنة في الحجاز ونجد وبذلك تتمّ ابحاثنا عن تاريخ النصرانيّة في كل انحاء جزيرة العرب

والحجاز على مقتضى تعريف العرب جبل ممتدّ من تخوم صنعاء في اليمن الى تخوم الشام من جنوب جزيرة العرب الشرقي الى شمالها الغربي وقد دُعي حجازاً لانهُ يحجز غور تهامة على سواحل خليج العرب عن بلاد نجد في اواسط الجزيرة . ويُدعى الحجاز ايضاً بجبل السَّراة وهو اعظم جبال العرب وفيهِ اشهر مدنهم اي مكة والمدينة وتدخل فيهِ دومة الجندل حتى أيلة على بحر القلزم التي نعتها ياقوت بآخر بلاد الحجاز

فتلك البلاد كانت قديماً عريقة في الوثنيّة ولاسيما في عبادة قوّات الطبيعة واخصّها النيّران العظيمان الشمس والقمر ثم الزُّهرة. على انَّ دُعاة الدين المسيحي لم يحجموا عن دعوة اهلها الى النصرانيّة كما تشهد عليهِ شواهد ثابتة نقلها قدماء الكتبة من يونان وسريان وعرب. وقد اثبتنا سابقاً شهادة ابن خلدون (ج ٢ ص ١٥٠ من تاريخهِ) في بعثة الرسول برتلماوس « الى ارض العرب والحجاز ». وسبقهُ الى مثل ذلك الطبري في تاريخهِ (طبعة ليدن ج ١ ص ٧٣٨) حيث قال: « وكان ممن توجّه من الحواريين . . . ابن تلما (اي برتلماوس) الى العربيّة وهي ارض الحجاز » وكذلك ورد في سيرة الرسول لابن هشام (ص ١٧٢ ed. Wüstenfeld,):

« وبُعث من الحواريين . . . ابن تلما الى الاعرابيَّة وهي ارض الحجاز » . وجاء في ترجمة القديس يعقوب اسقف اورشليم (ص ١٧) انَّهُ « نصَّر ارض فلسطين وما يليها من ناحية حمص وقينسارية والسامرة وبادية الحجاز »

ثم في تاريخ الطبري قصة طريفة عن رسول السيد المسيح الى العرب نرويها بحرفها دون القطع بصحتها قال (١ : ٧٣٨ — ٧٣٩) :

حدَّثنا ابن حميد . . . عن ابي سُليم الانصاري ثم الزُرَقي قال : كان على امرأة منَّا نذر لتظهرنَّ على رأس الجبل . جبل بالعقيق من ناحية المدينة (قال) فظهرتْ عليه حتى اذا استوينا على رأس الجبل اذا قبر عظيم عليه حجران عظيمان حجر عند رأسه وحجر عند رجليه فيها كتاب بالمسند لا ادري ما هو . فاحتملتُ الحجرين معي حتى اذا كنت ببعض الجبل منبطئًا ثقلا عليَّ فألقيتُ احدهما وهبطتُ بالآخر فعرضتهُ على اهل السريانيَّة هل يعرفون كتابتهُ فلم يعرفوهُ . وعرضتهُ على من يكتب بازبور (اي العبرانية) من اهل اليمن ومن يكتب بالمُسْنَد فلم يعرفوهُ . فلمَّا لم اجد احدًا ممَّن يعرفهُ القيتهُ تحت ثابوت لنا فمكث سنين . ثم دخل علينا ناس من اهل ماه من الفرس يبتغون (ويروى : يبيعون) الحرز فقلتُ لهم : هل لكم من كتاب . فقالوا : نعم . فاخرجتُ اليهم الحجر فاذا هم يقرأونهُ فاذا هو بكتابهم : « هذا قبرُ رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام الى اهل هذه البلاد » . فاذا هم كانوا اهلها في ذلك الزمان مات عندهم فدفنوهُ على رأس الجبل

فهذه شهادة جليلة تشير الى مجيء احد رُسل السيد المسيح الى الحجاز قريباً من المدينة . ومن عجيب امر كاتبها انهُ يعتبر كالنصارى « عيسى بن مريم » كاله اذ قرينة الكتابة تبين انَّ الرسول المذكور ليس هو عيسى بل هو مرسل من « الله عيسى »

ايلة ﴿ كما مرَّ في طرف الحجاز من جهة الغرب كان اهلها قبل الاسلام نصارى ويهودًا . ولا يبعد ان النصرانيَّة دخلت فيها بعد المسيح بزمن قليل لقربها من بلاد الشام وفلسطين . وما لا يُنكر ان صاحبها كان نصرانيًّا لمَّا ظهر رسول العرب واسمهُ يوحنا بن روبة صالحهُ نبيُّ الاسلام على جزية كانت تبلغ ٣٠٠ دينار . وفي كتاب وفادات العرب على محمَّد لابن سعد (ed. Wellhausen, *Skizze*. IV, ٢٧) ما حرفهُ :

«قال وقدم يحنَّه بن روبة على النبي وكان ملك ايلة . . . واقبل ومعهُ اهل جربا . واذرح . فاتوهُ فصالحهم وقبل عليهم جزية معلومة . . . اخبر عبد الرحمن بن جابر عن ابيه قال : رأيتُ على يحنه بن روبة يوم أتى النبيَّ صليباً من ذهب وهو معقود الناصية فلمَّا رأى رسول الله كفَّر واومأ برأسه فاومأ اليه النبيُّ أن ارفعْ رأسك وصالحهُ يومئذٍ وكساهُ رسول الله بُرد يحنة . . »

﴿ دومة الجندل ﴾ حصن كان بين المدينة ودمشق على سبع مراحل من دمشق كان مبنيًا بالجندل اي الصخر وكان حولهُ مدينة واسعة يحيط بها سور. وكان صاحب دومة الجندل أكيدر الملك ابن عبد الملك السكوني. وكانت دومة الجندل عند ظهور نبيّ الاسلام كلها نصرانيّة عليها اسقف تابع لمدينة دمشق كما ورد في كتاب « مدينة الله انطاكية » من مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة. وكان ملكها أكيدر نصرانيًا فبعث اليهِ محمد رسول الاسلام خالد بن الوليد في ربيع الاوّل من السنة الخامسة للهجرة (٦٢٦ م) فاسرهُ

قال ابن سعد في كتاب وفادات العرب (ص٢٧) بعد ذكرهِ يحنّه بن روبة صاحب أيلة: « قال ورأيت أكيدر حين قدم بهِ خالد وعليهِ صليب من ذهب وعليهِ الديباج ظاهرًا ». وفي معجم البلدان لياقوت (٢ : ٦٢٦) انَّ خالدًا حاربهُ السنة تسع للهجرة وافتتح دومة الجندل عنوة وقتل اخاه حسّان. قال: « ثم انَّ النبيّ صالح اكيدر على دومة وامّنهُ وقرّر عليهِ وعلى اهلهِ الجزية وكان نصرانيًا . . . ». وفي فتوح البلدان للبلاذريّ (ص ٦١—٦٣) انَّهُ أسلم ثم ارتدَّ بعد وفاة محمّد فاجلاه عُمر من دومة الجندل فيمن اجلى من مخالفي دين الاسلام الى الحيرة فنزل في موضع منها قرب عين التمر وبنى بهِ منازل سمّاها دُومة باسم حصنهِ فغزاها خالد سنة ١٢ للهجرة وقتل اكيدر

اما اهل دومة الجندل فكانوا من بني السكون وهم فرع من بني كندة وكانوا نصارى كما ورد في سيرة الرسول لابن هشام. وكذلك كان يسكن دومة الجندل قوم من بني كلب الذين سبق بيان نصرانيتهم (١

﴿ وادي القرى ﴾ هو وادٍ بين الشام والمدينة يُعدّ من الحجاز ومنهُ كانت دومة الجندل ودُعي هذا الوادي بوادي القرى لكثرة القرى الواقعة فيهِ لوفرة مياههِ وخصبهِ منها الحِجْر وكان اليهود يسكنون هذا الوادي اوّلًا ثم نزلتهُ قضاعة وهي من اثبت القبائل في النصرانيّة ومنهم بنو سليح الذين ذكر المؤرخون تنصّرهم

---

١) اطلب تاريخ العرب في الجاهليّة لكوسان دي برسفال (Caussin de Perceval: *Essai sur l'Hist. des Arabes*, I, 214, II, 232,265)

في الشام (١ وفي وادي القرى كان يسكن قوم من الرهبان ذكرهم شعراء العرب قال جعفر بن سراقة (الاغاني ٧ : ١٦١) :

وغن منعنا ذا القرى من عدوّنا وعُذرةَ اذ تَلقى جموداً وبَمثرا
منعناهُ من عُليا معدّ وانتمُ سفاسيفُ روح بين قرحٍ وخيبرا
فربّان رهبانٌ باسفل ذي القرى وبالشام عرّافون فيمن تنصّرا

﴿ تيماء ﴾ هي بلدة في الحجاز بين الشام ووادي القرى وفيها كان الاباق حصن السمؤل . والشائع انّ السمؤل كان يهودياً الّا اننا لمّا طبعنا لاوّل مرّة ديوانهُ اتينا في المقدّمة ببعض الشواهد المثبتة نصرانيتهُ (٢ كاصلهُ الغسّاني وكذكرهِ في شعرهِ على بعض تلامذة المسيح بل تصريحهِ باسم السيد المسيح في قصيدة لاميّة وجدت في الموصل حيث يقول

وفي آخر الازمان جاء مسيحنا فاهدى بني الدنيا سلام التكامل

ولعلّ الصواب انّهُ كان من احدى الشيع اليهوديّة المتنصّرة (Judéo-chrétien)

﴿ تبوك ﴾ مكان حصين بين وادي القرى والشام على اربع مراحل من الحجر كان بهِ عين ونخلٌ . ملكهُ المسلمون سنة ٩ للهجرة بعد ان حاربوا فيهِ الروم ومعهم نصارى العرب من غسّانة ولخم وجذام . وكان اهل تبوك من نصارى قضاعة قال ابن خلدون نقلاً عن ابن سعيد (٢ : ٢٤٩) : « وكان لقضاعة ملكٌ آخر في كلب ابن وَبَرة بن تغلب يتداولونهُ مع السُكون من كندة فكانت لكلب دومة الجندل وتَبوك ودخلوا في دين النصرانيّة » ثم ذكر مهاجرة كلب بعد الاسلام فقال : « وبقيت بنو كلب في خلقٍ عظيم على خليج القسطنطينيّة منهم مسلمون ومنهم متنصّرون » (لهُ بقيّة)

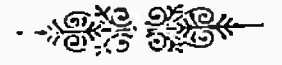

---

١) في التاريخ المذكور (Id. I, 212, 731)
٢) راجع المشرق السنة ١٢ (١٩٠٩ ص ١٦٣)